

تعليم النساء

جاء في كتاب البيان والتبيين الوصية الآتية: «لا تعلموا بناتكم الكتاب (أى الكتابة) ولا تروهن الشعر، وعلموهن القرآن ومن القرآن سورة النور»^(١). وقال ابن بسام: «ولا يعلم الخط لامرأة ولا لجارية لأن ذلك مما يزيد المرأة شرا. وقد قيل إن المرأة التي تتعلم الخط كمثل الحية تسقى سما»^(٢).

ومما يروى من الحديث عن عائشة أم المؤمنين أنه يجب أن يمنع النساء عن تعلم الكتابة ويكتفى بتعليمهن سورة النور وصناعة الغزل. ويظهر مما سيأتى أن هذه الوصايا وهذه الآراء لم تحفظ ولم تطبق، إذ ضرب بعض النساء بسهم كبير من العلم والتربية منذ نشوء الإسلام إلى وقتنا هذا. قال البلاذرى فى كتاب فتوح البلدان: «إن النبى ﷺ قال للشفاء بنت عبد الله العدوية من رهط عمر بن الخطاب ألا تعلمين حفصة رقية النملة كما علمتها الكتابة؟، وكانت الشفاء كاتبة فى الجاهلية» وقد ذكر البلاذرى أيضا أن «حفصة زوج النبى ﷺ كانت تكتب. وكذا كانت أم كلثوم بنت عقبة تكتب. وقالت عائشة بنت سعد: علمنى أبى الكتاب». وروى البلاذرى أيضا «حدثنى أبو الوليد عن الواقدى عن موسى بن يعقوب عن عمته عن أمها كريمة بنت المقداد أنها كانت تكتب». وكانت عائشة تقرأ المصحف ولا تكتب. وأم سلمة أيضا كانت تقرأ ولا تكتب». فيستتج أن النساء اللواتى كن يقرأن أو يكتبن فى صدر الإسلام كن: الشفاء وحفصة وأم كلثوم وعائشة بنت سعد وكريمة بنت المقداد وعائشة وأم سلمة - أى سبع نساء^(٣). وهكذا يقرب عدد اللواتى كن

(١) البيان والتبيين ٢: ٩٢.

(٢) كتاب نهاية الرتبة فى طلب المبة [مخطوطة - راجع مجلة المشرق ١٠: ٩٦١].

(٣) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٤٧٧.

يكتبن من نصف عدد الذين كانوا يكتبون عند ظهور الإسلام، إذ يذكر البلاذري أنه، «دخل الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلا كلهم يكتب». وكان منهم عمر ابن الخطاب وعلى بن أبي طالب وعثمان بن عفان وأبو عبيدة وطلحة ويزيد بن أبي سفيان وأبو حذيفة ومعاوية. هذا، ومع أن بعض النظريات كانت لا تشجع تعليم البنات كما مر، فيكفي المسلمين فعل النبي ﷺ لما أظهر رغبته في تعليم النساء القراءة والكتابة. وقد قال أيضا: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة». والأمثلة كثيرة على النساء العربيات المسلمات اللواتي تعلمن القراءة والكتابة والنحو وروين الحديث. وزد على ذلك أنهن لم يتعلمن فقط بل علمن غيرهن. وكان ممن درس على النساء بعض الرجال أيضا كما سترى. ولليان إليك أسماء النساء اللواتي ورد لهن ذكر في كتاب «تهذيب الأسماء» للنووي:

١- أسماء بنت أبي بكر أخت عائشة لأبيها وأم عبد الله بن الزبير. والكل يعرف احترام عبد الله بن الزبير لأمه أسماء، وكيف أنه استشارها في العمل حينما تغلب عليه الحجاج. وكلنا يذكر قولها لابنها: «يا بنى عشر، كرما ومت كرما». وأما نصيب هذه المرأة الفاضلة من الأدب فيظهر من أنه روى لها ستة وخمسون حديثا عن رسول الله ﷺ^(١). ويقال أن أسماء شهدت غزوة اليرموك مع زوجها الزبير، وأنها كانت شديدة البأس وذكية وبلغت المائة من العمر ولم تسقط لها سن، ولم تضعف قواها العقلية.

٢- عائشة وليس بنا حاجة إلى الإفاضة في بيان ذكائها، فإنها سميت بأمر المؤمنين، وكانت تعرف الكتابة، ونالت احترام النبي ﷺ وثقته حتى أنه أمر الناس أن يأخذوا نصف دينهم عنها. ويذكر النووي أنه روى لها عن رسول الله ﷺ ألف حديث^(٢).

٣- أم الدرداء وهي جديرة بالذكر إذ كانت زاهدة فقيهة يمكن القارئ الوقوف على ذوقها الأدبي وتلذذها العقلي من قولها: «لقد طلبت العبادة في كل

(١) تهذيب الأسماء للنووي ص ٨٢٣ [طبع ليدن].

(٢) تهذيب الأسماء للنووي ص ٨٤٩.

شيء. فما أصبت لنفسى شيئا أشفى من مجالسة العلماء ومذاكرتهم». ويصفها النورى بقوله: «اتفقوا على وصفها بالفقه والعقل والفهم والجلالة». وعاشت هذه السيدة العربية فى أيام معاوية، وكانت تقيم ستة أشهر ببيت المقدس وستة أشهر بدمشق.

٤- عليّة بنت المهدي. قيل عنها أنها «كانت من أحسن الناس وأظرفهم، تقول الشعر الجيد وتصوغ فيه الألحان الحسنة. . . وكانت لا تغنى ولا تشرب النبيذ إلا إذا كانت معتزلة الصلاة. فإذا ظهرت أقبلت على الصلاة والقرآن وقراءة الكتب. فلا تلتذ بشيء غير قول الشعر»^(١).

٥- نضار بنت أبى حيان. قال المقرئ أن هذه السيدة «حجت وسمعت قراءة العلم على بعض الشيوخ. . . وحضرت على الدمياطى وسمعت على جماعة. وأجازها من المغرب أبو جعفر. . . وحفظت مقدمته فى النحو. ولما توفيت وضع والدها فيها كتابا سماه (النضار فى المسلاة عن نضار). وكان والدها يثنى عليها كثيرا. وكانت تكتب وتقرأ. ذكر الصفدى قال لى والدها أنها كانت تعرب جيدا وأظنه قال لى أنها تنظم الشعر. وكان يقول دائما لبت أخاها حيان كان مثلها»^(٢).

٦- فضل المدنية. كانت حاذقة بالغناء كاملة الخصال، وأصلها لإحدى بنات هارون الرشيد. نشأت وتعلمت ببغداد^(٣).

٧- قمر، جارية إبراهيم بن حجاج اللخمي صاحب أشبيلية. كانت من أهل الفصاحة والبيان والمعرفة بصوغ الألحان. وجمعت أدبا وظرفا ورواية وحفظا مع فهم بارع وجمال رائع. وكانت تقول الشعر^(٤).

٨- ولادة المروانية. وصلت هذه السيدة براعة ولباقة إلى حد مداعبة الوزير ابن زيدون بأبيات من الشعر.

(١) الأغاني ٩ : ٧٩ .

(٢) نفع الطيب ١ : ٦٠٣ .

(٣) نفع الطيب ٢ : ١١٨ .

(٤) نفع الطيب ٢ : ١١٨ .

٩- حسانة التيمية. تأدبت وتعلمت الشعر... ولما وقف الحاكم على شعرها استحسنته وأمر بإجراء مرتب لها.

البنات والمكتب:

لقد جئنا بأسماء بعض النساء العربيات اللواتي بلغن درجة من العلم والأدب. وبقي أن نقول كلمة في الوسائط التي وجدت لتعليمهن. أما هذه فكانت التعليم الخصوصي على مدرسين خصوصيين، وفي مكاتب خصوصية. وما يذكر في كتاب الأغاني تردد البنات إلى المكتب في القرن الثاني للهجرة. وإليك ما رواه الأصفهاني: «كان بالكوفة رجل يقال له علي بن آدم وكان يهوى جارية... وحدثني بعض أهل الكوفة أنه علقها وهي صبية تختلف إلى الكتاب. فكان يجيء إلى ذلك المؤدب فيجلس عنده لينظر إليها»^(١). وقيل أيضا عنه أنه «مر بمكتب في بني عبس بالكوفة فرأى فيه جارية»^(٢). وقيل أن خليلا المعلم الملقب بخليلين «كان يؤدب الصبيان ويعلم الجوارى الغناء في موضع واحد»^(٣). وذكر الجاحظ أن «الوليد بن عبد الملك مر بمعلم صبيان فرأى جارية تتعلم القرآن»^(٤). فمن هذا يظهر أن الفتيات ذهبن للتعليم في المكتب، وفي بعض الأحيان تعلمن مع الفتيان كما هو معروف اليوم في بعض الأماكن. فلإننا رأينا في القاهرة أحد المكاتب محتويا على الصبيان والبنات معا.

النساء والتدريس:

إن هذا القرن لهو عصر النساء. إذ نراهن يزاحمن الرجال على الأشغال والمهن مثل التعليم والطب والمحاماة. ومن الغريب أن بعض عرب اليوم يستكرون مخالطة النساء للرجال ولا يحبذون اتخاذهن أعمالهم. ويظهر مما سيأتى أن عددا من النساء العربيات احترفن التدريس فعلمن الرجال وأجزن لهم. كما فعلن بنات جنسهن وإليك أسماء بعضهن:

(١) الأغاني ١٤ : ٤٩ .

(٢) الأغاني ١٤ : ٤٩ .

(٣) الأغاني ٢١ : ٤٨ .

(٤) البيان والتبيين ٢ : ١٠٦ .

١- أم المؤيد زينب، يقول ابن خلكان أنها «كانت عالمة وأدركت جماعة من أعيان العلماء وأخذت عنهم رواية وإجازة. وأجاز لها الحافظ أبو الحسن. ولنا منها إجازة»^(١).

٢- فخر النساء شهدة. كانت من العلماء وكتبت الخط الجيد وسمع عليها خلق كثير. وكان لها السماع العالي ألحقت فيه الأصاغر بالأكابر... واشتهر ذكرها وبعد صيتها^(٢).

٣- السيدة نفيسة ابنة أبي محمد. كانت من النساء الصالحات التقيات. وقد روى أن الإمام الشافعي لما دخل مصر حضر إليها وسمع عليها الحديث^(٣). ويعترف أبو حيان بأنه كان بين شيوخته ثلاث نساء وهن:

٤- مؤنسة بنت الملك العادل.

٥- شامية بنت الحافظ.

٦- زينب بنت عبد اللطيف^(٤).

٧- شهدة الكاتبة بنت الأبري. قرأ عليها عبد الرحمن بن داود صحيح البخاري^(٥).

٨- العروضية. سكنت في بلنسية وأخذت عن مولاها النحو واللغة لكنها فاقتة في ذلك. وبرعت في العروض. وكانت تحفظ الكامل للمبرد والنوادر للقالبي وتشرحهما. قال أبو داود سليمان: «قرأت عليها الكتابين وأخذت عنها العروض»^(٦).

٩- مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري. سكنت في أشيلية وقيل أنها كانت أديبة شاعرة مشهورة. وكانت تعلم النساء الأدب^(٧).

(١) ابن خلكان ١: ٣٤٧.

(٢) ابن خلكان ١: ٢٨٣.

(٣) ابن خلكان ٢: ٢٢٤.

(٤) نفع الطيب ١: ٥٩٨.

(٥) نفع الطيب ٢: ١١٧.

(٦) نفع الطيب ٢: ٤٣٠.

(٧) نفع الطيب ٢: ٤٩٣.

هذه بعض الأمثلة التي ربما أظهرت ممارسة النساء العربيات لفن التعليم وكفايتهن للمهنة. هذا، ولم يكن عدد المدرسات مقصورا على ما ذكرناه، فقد روى ياقوت أن شيوخ على بن الحسن بن عساكر بلغ عددهم ألفا وثلاثمائة، ومن النساء بضعا وثمانين^(١).

وصفوة القول أن التربية عند العرب لم تنحصر في الرجال بل شملت النساء أيضا، حتى أنه اشتهر عدد من العربيات بالذكاء وتوقد القريحة مثل الحنساء وعائشة وأسماء وغيرهن، ولما ظهر الإسلام وأخذت القراءة والكتابة في الانتشار تعلمها بعض النساء كما فعل الرجال. ولما فتحت المكاتب والمدارس وانتشر العلم، كان للنساء نصيب من ذلك، إذ جاء ذكر للبنات في المكاتب. هذا، وقد جئنا بالأدلة على تعاطي النساء الأعمال الأدبية مثل الكتابة والإنشاء ورواية الحديث وقول الشعر والتعليم. ولو لم يفتخر العرب بذكاء نسائهم في العراق والشام ومصر والأندلس، لما ذكروا أنهم أجزن لهم وألقين عليهم الدروس. ولا نغنى بما جئنا به تعليم النساء أن العلم كان منتشرًا بينهما كما هو اليوم منتشر بين نساء الغرب، ولا أن عدد المتعلمات كان يضاهي عدد المتعلمين عند العرب، غير أن ما وقفنا عليه يجيز لنا القول أنه كان لنساء العرب وسائل لتلقى العلم.

ومما هو جدير بالذكر أن عددا منهم انتهزن الفرصة وانتفعن من تلك الوسائل. وقد لا نخطئ إذا أسرفنا بالزعم وقلنا أنه إذا قابلنا نساء العرب بنساء الإفرنج في القرون الوسطى، وجدنا حالة العربيات الأدبية في درجة أرقى من حالة أخواتهن الإفرنجيات. ومن أظرف ما وجدناه عن النساء والأدب ما قاله صاحب الأغاني: «أن أبا دهبيل كان يهوى امرأة من قومه يقال لها عمرة. وكانت امرأة جزلة يجتمع الرجال عندها لإنشاد الشعر والمحادثة»^(٢). ومما يذكر عن جوار اشتران هشام بن عبد الملك أنه لما استنطقهن «رأى فصاحة وأدبا فاستقرأهن القرآن فقرأنه، واستنشدن الشعر فأنشدنه قصائد الكميت»^(٣).

(١) معجم الأدباء ٥ : ١٤٠.

(٢) الأغاني ٦ : ١٦٠.

(٣) الأغاني ١٥ : ١١٢.

والأستاذ المستشرق برون (E.G. Browne) الذي كان في جامعة كامبريدج يروى قصة عن إحدى جوارى هارون الرشيد ربما أظهرت حالة النساء من حيث التعليم، وهى أنه قدم لهارون الرشيد جارية ثمنها عشرة آلاف دينار. فدفع الخليفة الثمن المطلوب بشرط أن تؤدى الجارية امتحانا فى بعض العلوم. فامتحن فى الفقه والتفسير والطب والفلك والعلوم اللغوية والشطرنج. ولم تكتمف الجارية بالإجابة على الأسئلة بل طرحت هى الأسئلة على ممتحنها، فعجزوا عن الإجابة⁽¹⁾.

ومما كان فى هذه الرواية من المبالغة، فلا شك أن الجوارى حصلن على الوسائط للتعلم والوقوف على شىء من الأدب العربى .

وعلى كل حال فمما لا ريب فيه أن النهضة العربية الحاضرة لن تنضج ولن تثمر ولن تصل إلى أوج مجدها، إن لم يكن للعربيات النصيب الأوفر فى مؤازرتها ونشرها. فكما أن العرب الأقدمين فتحوا المجال لنسائهم كى يساعدنهم فى حركتهم الأدبية، فلا شك أن عرب اليوم مضطرون إلى أن يفتحوا لهن المجال فى هذا العصر الذى لا يمكن أن تقوم لهم فيه قائمة بلا مجهود المرأة وسعيها وقربتها وعطفها.

(1) Arabian Medicine E. G Browne p.31 .